26

الحرم القدسي الشريف وصلاتنا الأولى

صباح اليوم التالي توجهت باكرًا مع ابني إلى ساحة المسجد الأقصى. غمرنا جوّ من حرية وسكينة في وساعتها اللانهائية، نتجول يدًا بيد وشعري مغطى بمنديل أعارني إياه حراس المكان وطلبوا مني وضعه على رأسي، بالأحرى أجبروني. جلسنا على حافة نافورة صغيرة حيث يتوضأ الناس. ثمة أطفال لاهون يلعبون حولنا، نساء ورجال يروحون ويجيئون، آخرون يفردون طعامهم ويغمّسون... الجو عامر بالصفاء في هذا المكان المقدس، روحانيته تتزاوج على نحو مدهش مع سلوك الناس في أرجائه، هم هنا على راحتهم، يسعون ويتحركون كما يفعلون في حياتهم اليومية الاعتيادية.

لا شيء مما خشيته في البداية، لا توتر يمكن تلمسه. يستفهم البعض عن مكان قدومي وأصولي فأرد بفخر:

- "غزة".

عندها، كأن عصا سحرية تمس الوجوه وترسم عليها ترحيبًا وتأهيلًا:

- "آه! أهل غزة المساكين، أهل غزة! على العين والراس، والله أنتم كبار المقاومين، يالكم من شجعان، أنتم مصدر فخرنا".

نصل الحرم القدسي الشريف الذي بناه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عام 692. ندخل المكان من باب المغاربة القريب من الحائط الغربي. الساحة تمتد بجلالها أمامنا تنتصب فيها قبة الصخرة حيث عرج النبي محمد إلى السماء، الصخرة التي تشير إلى مركز العالم عند قدامى علماء الجغرافيا المسلمين... هنا صخرة ومسجد وساحة ومعهم كل التوترات والصدامات والمعارك التي لا تتوقف بين المسلمين واليهود.

نجلس جنبًا إلى جنب نتذوق بصمت عظمة المكان، تقترب منا شابة محجبة تحمل بيدها قرآن، تتوقف وتبدأ بقراءة بعض الآيات بلغة عربية ركيكة ومضحكة. تستمر ربع ساعة بقراءتها المتعثرة والمؤثرة، وحين تنتهي تكلمني لتشرح لي بأنها أميركية فلسطينية ولدت وتعيش في الولايات المتحدة. حدثتني عن تشوقها الطويل لهذا اليوم. إنها المرة الأولى لها هنا وهي تشعر بخشية من الدخول للمسجد، تخاف ألا تحسن التصرف، ألا تصلي كما

يجب وأن تثير غضب المصلين. آه، يشعرني اعترافها بالاطمئنان! أنا أيضًا أخشى، أخاف، لا أجرؤ. أما أنيس فلا داع للحديث عن مشاعره بهذا الشأن. لم يصلِ في حياته بل لعله صلى فقط في السنة الأولى في المدرسة حين كنا في تونس. تسلحنا نحن الثلاثة بالشجاعة ونهضنا قاصدين المسجد. في تلك اللحظة اعترضتنا دورية من الجنود. كنت طوال الوقت أحاول تجاهلهم وتجنب التحدث أمامهم. مع أنهم كانوا دائمًا هنا، هم دائمًا هنا... في كل مكان. طلبوا أوراقنا وأخذوا كل وقتهم وهم يتفحصونها ثم رفع أحدهم رأسه وسألني عن عمر ابني:

– "ستة عشر عاما".

قلتها بنبرة متحدية.

تمعنوا فينا لبرهة ثم غادروا. ياللغرابة، ترك هذا الاستجواب لدينا أثرًا إيجابيًا! قضى على خشيتنا! كأنه كان ترفيهًا، كأن الجنود كانوا العقبة الأخيرة أمامنا وها قد انتهينا للتو من تجاوزها فدخلنا.

أخذت أصلي وأبذل كل جهدي في صلاتي، أنتقي السُّوَر التي حفظتها عن ظهر قلب في صغري، وأرمق بقلق ابني من وقت لآخر. اطمأننت عليه وقد رأيت حوله رجالًا كانوا سعداء بارشاده للحركات المطلوبة. أما أنا، فلم أستطع خلال صلاتي منع شعور غريب من التسلل إليّ. كنت في الحين نفسه "جوه وبره". لم أتمكن من الذوبان في الجو المحيط. كنت فقط شديدة التأثر بهالة الغموض التي تلفّ المكان والتي أثقلت على قناعاتي

الدينية المتواضعة، لقيت نفسي تتصرف كأجنبية خرقاء. لكن وجودي في هذا المكان كان أساسيًا لي، نوع من واجب، من فرضٍ تجاه كل المؤمنين. أو... حسنًا... لا أدري... ربما لطرد الأرواح الشريرة القديمة القابعة في روحي. كان بودي بصدق أن أكون مخلصة في صلاتي وأن أؤديها بإيمان لكني أظن أني لم أفلح بمخاطبة الله، بل أجرؤ أيضًا على الاعتراف أن الخشوع نأى عني وغادرت المكان وفي ذهني أن صلاتي في المسجد الاقصى لم تكن كما أردت لها أن تكون. اضطربت لشعوري هذا وبالطبع لم أنطق بشيء من خواطري لولدي.